

التفسير الشفوي عند علماء توات؛ أعلامه مجالسه

Oral Exegesis Among the Scholars of Touat: Prominent Figures and Assemblies

عباس بن شيخ¹

Abbas Ben Cheikh¹

¹ جامعة غرداية (الجزائر)، abbas.benchikh@univ-ghardaia.edu.dz

تاريخ النشر: 2024/06/30

تاريخ القبول: 2024/02/10

تاريخ الاستلام: 2024/12/19

ملخص:

عُرفت الجزائر بحواضرها العلمية التي أدت دوراً بارزاً في حفظ هوية المجتمع الجزائري، والتي كان لها الفضل الكبير في نشر العلوم والحفاظ عليها من خلال زواياها ومساجدها ومراكزها التعليمية، ونذكر منها حاضرة تلمسان وحاضرة وبجاية وحاضرة العاصمة وغيرها، ونذكر بالخصوص حاضرة توات أحد أهم القلاع العلمية التي امتد أثرها إلى الجوار الأفريقي واتسع صدها شرقاً وغرباً. والحديث عن حاضرة توات هو حديث عن منطقة عُرِف أهلها بحبهم للعلم وبذلهم في سبيله، وأكثر ما عنوا؛ بخدمة كتاب الله تعليمًا وتدریسًا وبحثًا في مسائله والعلوم الخادمة له، فكان منهم العلماء الجهابذة، وكانت لهم الزوايا التي شعت علمًا وورعًا، ومكتبات المخطوطات التي تشهد لهم بالعناية والبراعة في التفسير، وقد سجلت تراجم العلماء قبل القرن الثاني عشر للهجرة اهتمامهم بهذا الفن، فقد وجدنا في القرن التاسع للهجرة عددًا من تأليف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي العالم في التفسير وعلوم القرآن، نذكر منها على سبيل المثال: "البدر المنير في علم التفسير"، و"تفسير سورة الفاتحة".

الكلمات المفتاحية: التفسير الشفوي - توات- الجزائر،

تصنيفات JEL:،، ...

Abstract:

Algeria has long been distinguished by its prominent centers of learning (Hadhira), which played a pivotal role in preserving the identity of Algerian society. These centers were instrumental in disseminating and safeguarding knowledge through a network of Zawiyas, mosques, and educational institutions. Notable among these are the centers of Tlemcen, Bejaia, and

Algiers, and most specifically, the Touat region—one of the most significant intellectual strongholds whose influence extended into neighboring African regions and resonated far to the east and west. Discussing the Touat center entails an exploration of a community renowned for its devotion to knowledge. Their primary focus lay in the service of the Holy Qur'an, encompassing its instruction, study, and the various auxiliary sciences supporting it. This scholarly environment produced eminent jurists and scholars, as well as Zawiyas that radiated both knowledge and piety. Furthermore, their manuscript libraries stand as a testament to their meticulous care and proficiency in Exegesis (Tafsir). Biographies of scholars prior to the 12th century AH (18th century CE) document a profound engagement with this discipline. In the 9th century AH (15th century CE), for instance, we find several compositions by Sheikh Muhammad ibn Abd al-Karim al-Maghili, a scholar of exegesis and Qur'anic sciences. Notable among his works are Al-Badr al-Munir fi 'Ilm al-Tafsir (The Radiant Full Moon in the Science of Exegesis) and his commentary on Surat al-Fatiha

.Keywords: Oral Exegesis – Touat – Algeria.

JEL Classification Codes: ..., ..., ...

المؤلف المرسل: عباس بن شيخ: abbas.benchikh@univ-ghardaia.edu.dz

1- مقدمة عن التفسير عند علماء الجزائر.

كان لعلماء الجزائر اهتمام كبير بالتفسير عبر التاريخ، ويظهر ذلك جلياً من خلال والتدريس أولاً، فبعد الفتح الإسلامي لأرض المغرب انتشرت المساجد ودور العبادة والمؤسسات التعليمية التي عملت على تلقين تعاليم الإسلام وبسط أحكامه وتحفيظ القرآن، كما ظهر ذلك الاهتمام أيضاً من خلال التأليف، فبعد استقرار حركة التعليم ورسوخ كثير من العلماء ظهرت الحاجة إلى التوسع في العلوم الإسلامية؛ فظهرت المدارس الفقهية والتفسيرية المختلفة، وغيرها.

لقد عني علماء الجزائر بالتفسير عنايتهم بالقرآن الكريم وعلومه، وتشهد كتب التراجم بالفضل لثلة من العلماء كان لهم قصب السبق في تفسير القرآن تدريساً أو تأليفاً، وتفيد بعض المصادر أن من

أقدم المؤلفات في التفسير عبر القطر الجزائر مؤلف في التفسير لعبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية⁽¹⁾. وتفسير لهود بن محكم الهواري⁽²⁾.

ومع ذكر المصادر التاريخية لبواكير الاهتمام بالتفسير والتأليف فيه، إلا أن تعاطيه ظل يسير بخطى ضعيفة تنامت في العصور التي تلت، ورغم المحاولات الجادة التي قام بها عديد العلماء، إلا أن معالم التفسير لم تتضح كثيراً، ولم تتجلى في إسهامات علماء الجزائر، لأسباب نذكر منها⁽³⁾:

- تنامي ظاهرة التقليد والجمود الفكري والتبعية للمشرق، فكما امتدت جزور الإسلام إلى أرض المغرب؛ امتدت معه أيضاً أولى المؤلفات وأمهات الكتب التي ألقت في شتى العلوم، فاكتمت الكثير بالوقوف على هذه المؤلفات المشرقية الوافدة موفق الدارس؛ الفاك لبعض رموزها الشارح لغامضها والحافظ لما فيها أحياناً أخرى.

- السير على الطريقة التقليدية في التدريس، حيث تسود في الزوايا، والمساجد طريقة الحفظ و التلقين فالمعلم وحده الذي يدير العملية التعليمية يلقي ويشرح و يحلل ما يحتاج إلى تحليل، و المتعلمون عليهم أن يتقبلوا ما يقوله المعلم في معظم الأوقات، فالتلقين ساد في تعاطي كل العلوم ما أدى إلى عدم الالتفات إلى التدوين والاكتفاء بالمشافهة في المجالس. يقول أبو القاسم سعد الله " ومن الذين تناولوا التفسير تدرساً عبد القادر الراشدي القسنطيني،⁽⁴⁾ ورغم شهرة الراشدي في وقته فإن حياته ما تزال غامضة لدينا ... والذي يهمنا هنا ليس هو حياته وإنما مساهمته في تفسير القرآن الكريم."⁽⁵⁾

وبحكم تأخر دخول الإسلام إلى الأراضي التواتية عنها عن أراضي الشمال الجزائري فإننا نجد علماء حواضر الجزائر العاصمة وبجاية وتلمسان وقسنطينة لهم سبق في مجال التفسير والعناية به.

(1) بابا عبي موسى وآخرون: معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)، منشورات جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية/الجزائر، ط1، 1420هـ/1999م، ترجمة رقم 544.

(2) راجع خدوسي وآخرون: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج2، ص685.

(3) عبد الخالق قسباوي: تفسير القرآن في المخطوطات الجزائرية من ق10 إلى 12هـ إقليم توات نموذجاً، مجلة مجلة الحضارة الإسلامية، مج16، ع27، ص ص 277-291.

(4) " ولد بقسنطينة وقرأ على والد وبها تخرج ثم ورد إلى تونس والجزائر ومكث بهما مدة وأخذ عن علمائها، وعاد إلى بلده فدرّس ونفع الطلبة، وكان ممن يميل إلى طريقة السلف، توفي سنة 1194هـ". ينظر: محمد مرتضى الزبيدي: المعجم المختص، تح: نظام محمد صالح يعقوبي و محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 2006، ص431.

(5) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب، ط1، 1998، ج2، ص14.

أما بخصوص عناية علماء توات بال تفسير، فإن الكتب والمخطوطات تشهد لهم بالعناية والبراعة فيه، وقد سجلت تراجم العلماء قبل القرن الثاني عشر للهجرة اهتمامهم بهذا الفن، فقد وجدنا في القرن التاسع للهجرة عدد من تأليف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي العالم في التفسير وعلوم القرآن، نذكر منها على سبيل المثال: "البدر المنير في علم التفسير"، و"تفسير سورة الفاتحة".⁽¹⁾ وتعدُّ من المؤلفات المفقودة للشيخ المغيلي، ويظهر من خلال عنوانه تطرقه إلى مباحث التفسير وأنواعه وما يتعلق بها. ويكفي من المؤلفات عناوينها التي تبين توجه القصد والنية إلى علم التفسير سواء أصولاً أو معانٍ.

وقد تصدر لتدريس التفسير عدد لا بأس من العلماء بتوات، فالباحث في كتب السير والتراجم يجد أنهم تلقوا علم التفسير والعلوم الدينية الأخرى،⁽²⁾ وتبوأوا مجالس العلم والقضاء، وأنشأوا الزوايا ومدارس العلم. ومما نجده في سيرهم مثلاً: أنه كان عالماً نحوياً مفسراً، وغيرها من الأوصاف والنعوت التي تنبأنا عن علمهم وإن لم يخلّفوا لنا أثراً تخكي جهودهم.

لقد اعتنت المؤسسات التعليمية بتوات أيما عناية بالعلوم التي يُحتاج إليها في فهم القرآن الكريم، وما ذلك إلا لعلمهم بالضرورة الملحة والحاجة الأكيدة إلى فهم القرآن لاستخراج أحكامه الفقهية وتعاليمه الدينية التي يُصلح بها المسلم دينه ودنياه، وإن كان الدافع الأول لبحث الموضوع في هذه الدراسة هو دحض الاعتقاد السائد - من خلال غزارة وطغيان المؤلفات الفقهية- بأن علماء توات كانوا بعيدين عن الدرس القرآني، والحقيقة أنهم وإن لم يبينوا عن تأليف عديدة وبارزة في علوم القرآن والتفسير إلا أن المتمعن في تأليفهم الفقهية يدرك أن ما كتبوه لا يمكن أن يصدر إلا عن متمكن من كل العلوم المتعلقة بالقرآن، الكاشفة لمعانيه.

2. التعريف بحاضرة توات وأهم مراكزها العلمية.

تُعدُّ منطقة توات من أهم الحواضر الصحراوية في الجنوب الغربي الجزائري، حيث تتميز بشواهد حضارية عدّة لها امتدادها في عمق التاريخ: وهو ما ساهم في الحفاظ على ربط أواصر النسيج الاجتماعي

(1) أحمد بابا التنيكي: نيل الاهاج بتطريز الديباج، اشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989، ص 577.

(2) لا نكاد نجد زاوية من الزوايا بتوات لا تدرس النحو والصرف والبلاغة والقراءات، وكلها علوم آلة لا يستقيم التفسير إلا بها.

في شتى المجالات بالمنطقة والمناطق المجاورة لها. وسنحاول التعرّيق بها من خلال إعطاء لمحة عن أصل التسمية والموقع واهم المراكز العلمية بها.

أما تسميتها فقد اختلفت الروايات حول مفهوم مصطلح "توات" لغة ومعنى، فالرصاع ينسبه إلى الأصل الأمازيغي وهو اسم لأحد البطون المنحدرة من قبيلة المثلثين سكان الصحراء، حيث يقول: "والمثلثون هم قبائل الصحراء بالجنوب عرفوا بهذا الإسم لأنهم يتلثمون بلثام أزرق، ومنه طوائف التوارق ولتونة والتوات".⁽¹⁾

والسعدي يرجعها إلى الأصل التكروري؛ وشاهده في ذلك ما وقع لسلطان مالي⁽²⁾ أثناء مروره بالمنطقة قاصدا الحج؛ يقول: "ومشى بطريق ولات في العوالي وعلى موضع توات فتخلف هناك كثير من أصحابه لوجع رجل أصابه في ذلك المشي تسمى توات في كلامهم، فانقطعوا بها وتوطنوا فيها، فسُي الموضع باسم تلك العلة".⁽³⁾

أما المؤرخ التمنيطي الشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكراوي يرى أصلها اللغوي من الاتوات، حيث يقول: "في سنة 518هـ، حيث غلب المهدي الشيعي سلطان الموحيدين على المغرب بعث قائديه على بن الطيب والطاهر بن عبد المؤمن لأهل الصحراء وأمرهما بقبض الاتوات فعرف أهل هذا القطر بأهل الاتوات، لأن السلطان قبله منه في المغرب"⁽⁴⁾. والشيخ الشيخ محمد بن عومر بن محمد بن المبارك البداوي الجعفري (ت. 1212هـ) في مخطوط (نقل الرواة عن من أبدع قصور توات) يرى أيضا أصلها اللغوي من المواتاة أي الملائمة.⁽⁵⁾

وهناك من الروايات ما يربوا عن الستة يمكن الرجوع إليها في الأبحاث المتعلقة بالمنطقة مفصلة.

أما عن مراكزها العلمية:

(1) محمد الأنصاري الرصاع: فهرست الرصاع، تونس 1967م، ص 127.

(2) كان ذلك في القرن الثامن للهجرة، وبرغم عدم كونها الرحلة الأولى للملك سنغاي ألا أنها الأشهر؛ لكثرة ما أنفق فيها وللوفد الكبير الذي رافقه أيضاً. ينظر: تاريخ السودان: عبد الرحمن السعدي، ص 07. تقي الدين أحمد بن علي المقرئ: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط 1، 2000، ص 141-142.

(3) عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، ص 07.

(4) محمد بن عبد الكريم البكري: دُرّة الأعلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة المطارقة، أدرار، ص 06.

(5) محمد بن عمر بن محمد بن المبارك البداوي الجعفري: نقل الرواة عن من أبدع قصور توات، مخطوط موجود بخزانة باعبد الله، وخزانة بودة بأدرار، ص 04.

فلقد كان اهتمام علماء توات وشيوخها بالمكتبات نابع من وعيهم بأنها تشكّل الخزان الفكري الذي يكفل للمتعلّم حسن التحصيل، كما يكفل نقل تراثهم الفكري والثقافي إلى الأجيال اللاحقة، من أجل ذلك اشتدت العناية بالمخطوطات وإنشاء المكتبات، فانتشرت خزائنها على ربوع المنطقة رغم شساعتها، ما يؤاها لأن تكون الخزان الأكبر للمخطوطات بشهادة العلماء والمهتمين. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ المرحوم أبو القاسم سعد الله: " وهذه المنطقة غنية بتراثها العلمي والديني، وغنية بعلمائها ومؤلفيها، وبزواياها ونظمها، وكذلك غنية بآثارها ومكتباتها. "(1)

نجد أيضا الكتاتيب القرآنية والتي بالرغم من بساطة شكله، وقلة إمكانياتها الماديّة، وفقر المعلّمين بها، وقدم أساليب التدريس المتبعة بها. إلا أنّها أدّت دورها التعليمي المتمثّل في تحفيظ القرآن الكريم عن طريق الاستظهار، وضبط تقنية القراءة والكتابة، وتقديم رصيد معرفي يسمح باكتساب خبرات لمواجهة الحياة العملية، والقضاء على الجهل بتعليم القراءة والكتابة، بالإضافة إلى تقديم المعارف الأولية لممارسة الشعائر الدينية.

كما نجد أيضا الزوايا وهي نوع من أنواع التعليم الديني الذي عرفه المسلمون منذ أمد بعيد، حيث يتلقّى فيها الناس من مختلف أعمارهم المعارف والعلوم والآداب، وغالباً ما تكون العلوم التي يتلقاها الدارسون علوماً دينية، لذلك فهي لا تختلف كثيراً عن المدارس، كما أنها لا تختلف كثيراً عن بقية الزوايا في بلاد المغرب بشكل خاص والعالم الإسلامي بشكل عام، من حيث أهميتها وخصائصها ووظائفها ومقوماتها، والمراحل التي مرّت بها مع احتفاظها بالطابع المغربي. وبالجملّة، فهي نوع آخر من المؤسسات التعليمية التي انتشرت في مناطق توات.

3. عناية علماء توات بالتفسير والعلوم الخادمة له.

ورغم العناية الكبرى التي أولاها علماء توات لحفظ القرآن حتى كاد لا يقبل وجود طالب علم في الزاوية إلا ويحفظ نصيباً من القرآن؛ إن لم يكن القرآن كله، رغم ذلك امتدت جهودهم إلى علوم القرآن الذي يُعد من مفاتيح القرآن ومداخله التي يفهم بها، إذ المقصود بعلوم القرآن " المباحث المتعلقة بالقرآن

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص214.

الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته وقراءته وتفسيره، واعجازه وناسخه ومنسوخه، ودفع الشبه عنه، ونحو ذلك" (1)، وكلها مباحث لا يستغني عنها الفقيه والمفسر والمحدث.

وقد أطلعنا الخزائن التواتية على كم هائل من المؤلفات في علوم التفسير، وفي الفقه، وفي اللغة العربية، ... الخ، والتي كان منطلقها ومدار بحثها القرآن الكريم، وهو ما يعكس العناية البالغة التي أولاها علماء توات لعلوم القرآن، من خلال المحافظة على الرسم القرآني، ومن خلال المحافظة أيضاً على سلسلة التواتر التي حفظ الله بها القرآن جيلاً عن جيل.

وكان الاعتماد السائد على رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق سبباً في عدم الإغراق في الحديث عن الروايات الأخرى، ذلك أن هذا الأمر لا يفهمه العامة، مما قد يخلط عليهم تلقيمهم وحفظهم، ولقلة المتصدّرين به في مجالس القراءة. أما لدى طلبة العلم والمشايخ، فكان لهم اهتمام واضح بهذا الفن، نذكر من أولئك العلماء الشيخ محمد بن عبد الرحمن البلبالي (ت. 1244هـ) الذي أتمّ دراسته الأولية في مسقط رأسه بملوكة، ولما بلغ مرحلة الارتقاء إلى المستوى الأعلى ارتحل إلى الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن عمر التيلاني في زاويته ليدرس عليه علوماً كثيرة، منها التفسير والقراءات. (2)

ولم يغفل علماء توات أهمية القراءات القرآنية، مما جعلهم يولونها بالغة، وهو ما أسلمهم إلى تقريرها كمواد دراسية في المراحل المتقدمة، ذلك أن من يتصدّون في العادة إلى أوجه القراءات من لهم اهتمام بالفقه والنوازل لمعرفة الأحكام وجبر التعارض بين النصوص.

لذلك حرص شيوخ الزوايا على تزويد طلبتهم المتفوقين بأنواع العلوم المختلفة، ومنها علم التفسير الذي كانت تخصّص له حلقاته الخاصة بشرح بعض كتب التفسير لأهمية العلم بالتفسير وضرورته، قال إياس بن معاوية: "يا سفيان، لا علم أشرف من علم القرآن. وهل تدري مثل من يقرأ القرآن ومن يعلم تفسيره أو لا يعلم؟ مثله مثل قوم جاءهم كتاب من صاحب لهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فقد دخلهم بهذا الكتاب روعة، لا يدرون ما فيه، فهم خائفون، فإذا جاءهم الصباح عرفوا ما فيه." (3)

إن تجاوز مرحلة حفظ القرآن وترسيخه لا تكون إلّا بمزيد التبحر فيه من خلال الاطلاع على معانية والتفتيش في مبانيه للوقوف على أحكامه ومعرفته ما تشابه منه، ولم يكن التفسير مقدماً عند

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العلمية، لبنان ط1، 2002، ص21.

(2) حسان حاج أحمد: غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل "المقدمة وباب الجامع" للشيخ محمد عبد العزيز البلبالي (ت. 1621هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أدرار، 2014/2015، ص89.

(3) الحكيم الترمذي: الأمثال من الكتاب والسنة: تح: سيد الجميلي، دار ابن زيدون، لبنان، ط2، 1987، ص45.

علماء توات؛ ليس لدنو مرتبته؛ وإنما لجلالة قدره، فهو العلم الذي لا يُقرئه إلا كبار العلماء⁽¹⁾، لضرورة أن يجمع العالم له علوماً عدّة يكمل بعضها بعضاً للتعامل مع القرآن؛ لفهمه وإفهامه.

4. المؤلفات التفسيرية في المقررات التعليمية.

إن من أبرز الملامح التي يمكن الوقوف عندها؛ أنه وإن لم يعتمد علماء توات مؤلفات تفسيرية لعلماء المنطقة تداولوها بينهم، إلا أن ما اختاروه من تفاسير كانت محور حلقاتهم ودروسهم التفسيرية؛ هي من التفاسير التي لاقت قبولاً وإجماعاً لدى العلماء في بلاد المشرق والمغرب الإسلاميين، إضافة إلى كونها مختصرة معاصرة، تجمع بين جنباتها علوم عدّة.

وإن لم تشر لنا كثير من التراجم التفاسير التي كان يعتمدونها من عرفوا بتدريسهم للتفسير، إلا أننا نحاول مقارنة ذلك من خلال التفاسير التي درسوها هم عن مشايخهم، أو التي ذُكر أنهم أجازوا فيها، وعليه يمكن الإشارة لبعض التفاسير التي تداولها علماء توات واعتمدها في تدريسهم بالمدارس القرآنية كما يأتي:

"-فتح البيان في مقاصد القرآن" لمحمد صديق حسن خان القنوجي (ت.1307هـ): كان يدرسه الشيخ باي بلعالم في مدرسته القرآنية مصعب بن عمير بأولف بمنطقة تيديكلت.⁽²⁾

"-تفسير الجلالين" لجلال الدين المحلي (ت.864هـ) وجلال الدين السيوطي (911هـ): ذكره الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنيلاني في إجازة شيخه سيدي محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم من بني القاضي الدرعي.⁽³⁾

"-الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان" للقرطبي (ت.671هـ): درّسه الشيخ عبد الرحمن حفصي في مسجده بعمنات أولف.⁽⁴⁾

"-أنوار التنزيل وأسرار التأويل" البيضاوي (ت.685هـ): ذكره الشيخ عبد الرحمن بنعمر التنيلاني في إجازة السيد عبد الرحمن الجنثوري له.⁽⁵⁾

(1) عبد الرحمان وعبد العزيز البلبالي: مقدمة غنية المقتصد السائل فيما حل بتوات من القضايا والمسائل، مخطوط بخزانة الحاج أحمد بأنزجيمير، أدرار، ص 5.

(2) محمد باي بلعالم: الرحلة العلمية، ج 2، ص 373.

(3) محمد باي بلعالم: الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن التنلاني، دار هومة، الجزائر، 2004، ص 39.

(4) محفوظ بن ساعد بوكراع: الفرقد النائر، ص 473.

ويظهر من خلال ما تمّ تدريسه عدم وجود مؤلف لعلماء المنطقة في التفسير تم اعتماده، في حين نجد بعض مؤلفاتهم التي اعتمدت في النحو أو الفقه، وهذا يترجم عدم توجههم للتأليف في هذا العلم مع إدراكهم لأهميته وفائدته؛ من خلال تقريره ضمن المواد المدرسة.

5. مجالس التفسير الشفوي لعلماء توات.

ويقصد بمجالس التفسير الشفوي تلك الحلقات العلمية التي تعقد لتدارس كتاب الله وتدبر معانيه وآيه وأحكامه عملاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونهُ فيما بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ". (رواه مسلم)

وقد حثّ الحديث على استحباب الاجتماع على تلاوة القرآن في حلقة تدارس، وذلك بتدبر معانيه لتحدث به غاية البلاغ والإنذار والتبيان والهدى والرحمة والبشرى والشفاعة لأصحابه يوم القيامة. وتختلف هذه المجالس في محتواها باختلاف روادها، فقد تكون للعامة لتقريب المعاني القرآنية إليهم من خلال الوعظ والإرشاد وبيان ما فيه من قصص وعبر ومواعظ، لتحقيق المعاني التربوية وترسيخها في نفوس المتلقين، وقد يكون للخاصة للوقوف على دقائق معانيه وخاصة أحكامه وفنون أساليبه، لتحقيق التدبر الكاشف لأغوار القرآن الكريم.

لقد كان من عناية علماء توات بالتفسير وشتى العلوم الأخرى أنهم كانوا يتلقونها جملة واحدة غير منفصلة عن بعضها، فيبتدئ الطالب بحفظ القرآن وينتهي إلى الإجازات عن المشايخ في القرآن وعلومه والفقه والحديث والعربية والفرائض، هذه العلوم التي كانت تشكل القاعدة المشتركة عند علماء توات.⁽¹⁾ لذلك؛ فلا عجب أن نجد في تراجم علماء توات أنهم تلقوا ودرسوا القرآن وعلومه والتفسير وغيرها من العلوم، وهذا ما يعطينا صورة واضحة على أن مشايخهم الذين أخذوا عنهم كانوا يعقدون مجالس للتفسير إن من المقررات السائدة آنذاك أو من شروحاتهم وتأليفهم.

والناظر إلى هذه مجالس التفسير عند علماء توات، يجدها ثابتة بشقيها في تراجمهم وسيرهم، فقد تلقوا التفسير ودرّسوا التفسير وألفوا فيه، ومعروف عن هؤلاء العلماء المشايخ إشرافهم من ناحية على

(5) محمد باي بلعالم: المرجع نفسه، ص 34.

(1) محمد باي بلعالم: الرحلة العية، ج 01، ص ص 292-298.

الزوايا بالتدريس فيها تبعاً للمقررات الدراسية، وإشرافهم من ناحية أخرى على المساجد التي تهيأ لهم لإلقاء الدروس للعامة في مبادئ اللغة والفقه والسيرة والقرآن.

وإن لم تسعفنا المصادر ببواكير تلك الحلقات العلمية في التفسير، إلا أننا ندرك العلاقة الوطيدة بين القرآن والتفسير، فهما يسيران جنباً إلى جنب، لا يتخلف أحدهما عن الآخر، ولا تتخلف معاني القرآن عن آياتها في مباحث اللغة، أو في مباحث الفقه، أو في السيرة، أو أي علم من العلوم الإسلامية التي كان علماء توات يتداولونها. وقد أسعفتنا بعض المصادر بمجلس التفسير الشفوي الذي كان يعقده الشيخ مولاي سليمان بن علي، مؤسس أول زاوية في الإقليم، والذي يمكن عده باكورة المجالس التفسيرية في توات، ويظهر من المعطيات التي أحاطت بالشيخ أن هذا التفسير كان موجهاً للعامة وللخاصة أيضاً لأسباب عدة، نذكر منها: (1)

- أن الزاوية كانت الأولى في الإقليم، وقد قامت على فكرة تأدية كل الأدوار من تعليم وضيافة وإيواء، ولم تتبلور فكرة الزوايا حينها بشكلها الحالي كمؤسسات تعليم عالي متخصص.

- أن الحركة العلمية وقتها لم تبلغ مبلغاً كبيراً فكان على المشايخ والعلماء دور ترقية أفراد المجتمع وتعليمهم، وإشاعة الوعي وحب العلم فيهم.

- أن التفسير كان أول جهد يُتبعه لطلبته بعد حفظ القرآن الكريم لحاجتهم إليه في الفقه خصوصاً والخطابة والعلوم الأخرى.

ومما يمكن ذكره: مجلس الشيخ الحاج أحمد من مالك الفلاني، ويستخلص ذلك من خلال الإجازة التي أقرها ابنه، من أنه قد أجازه في كتب الصحيحين وغيرها من كتب الحديث والفقه والنحو والتفسير، في إجازة ذكر فيها أسانيد كل الكتب التي أجزى فيها. (2)

والمجالس العلمية للشيخ عبد الرحمن بن باعمر التنيلاي، والتي كان يعقدها في بيته لطلبة العلم، ضمنها علوماً عدة؛ كالفقه واللغة والتفسير والبلاغة وغيرها، على عادة العلماء الفطاحل في الاستطراد في شتى العلوم. (3)

(1) عبد الخالق قصابوي: تفسير القرآن في المخطوطات الجزائرية...، مرجع سابق، ص 281.

(2) محمد باي بلعالم: الرحلة العلية، ج 1، ص 267.

(3) عبد الرحمن التنيلاي: الفهرس الورقة 08 وجه

ومن مجالس التفسير في فترة الدراسة حلقة شرح تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي للإمام عبد الرحيم بن إبراهيم التواتي (ت.1160هـ)، والتي ذكرها له تلميذه المفسر التنلاني في إجازته، وكذا حلقة الشيخ عبد الرحمن الجنتوري.⁽¹⁾

ومجلس الشيخ محمد بن أحمد الزجلاوي (ت.1212هـ)؛ مؤلف الفية غريب القرآن، وقد كانت عادة علماء توات الاعتماد على مؤلفاتهم في دروسهم، والإشارة والإحالة عليها في مدارسهم مع الطلبة. ومن المجالس التفسيرية أيضاً مجلس الشيخ الجنتوري؛ وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن التنلاني إجاز الشيخ سيدي محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم من بني القاضي الدرعي له في كتب عدة منها تفسير الجلالين.⁽²⁾

وكذا إجازته من شيخه الإمام الجنتوري في تفسير البيضاوي.⁽³⁾ وذكر أيضاً أنه بعد حفظه للقرآن عمد إلى الدر المصون في علم الكتاب المكنون ولخص مباحثه واستفاد منه⁽⁴⁾.

ومن تلك المجالس؛ حلقة للشيخ محمد بن أب، وحلقة الشيخ امحمد بن عبد الله الونقالي، وحلقة الشيخ سيد الحاج محمد البلالي (ت.1244هـ)، وأخرى لابنه الشيخ امحمد عبد العزيز البلالي (ت.1261هـ)، ومثلها للشيخ محمد الحسن بن سعيد البكري، وحلقة محمد العالم بن السيد محمد الجزولي (ت.1305هـ)⁽⁵⁾، حيث كانت لهم في تلك المجالس وقفات على التفسير وما يتعلق به.

ومن الذين اعتنوا بالتفسير تدريساً في القرن الرابع عشر للهجرة الشيخ عبد الرحمن حفصي (ت.1440هـ) إمام ومدرس بمنطقة أولف بتيديكلت، قرأ على يد الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الفقه والحديث واللغة والحديث والتفسير وكُتِبَ أخرى، رافق الشيخ باي بلعالم في مسيرة التدريس بمنطقة أولف، ودرس عنه الموطأ والبخاري وصحيح مسلم، قام على التدريس بمسجد عمات،

(1) محمد باي بلعالم، المرجع نفسه، ج 1، ص 34.

(2) محمد باي بلعالم: الغصن الداني، ص 39.

(3) المرجع نفسه، ص 34.

(4) المرجع نفسه، ص 53.

(5) عبد الرحمن بن باعمر التنلاني: الفهرس، الورقة 20 ظهر، محمد عبد العزيز البلالي: الغنية نسخة المطارفة، الورقة 02 ظهر، عبد الحميد بكري: النبذة ص 97 و 166 و 170.

وكانت له حلقات تدريسية في الفقه من أسهل المسالك، وفي اللغة من ملحة الإعراب والألفية والأجرومية، وفي التفسير من تفسير القرطبي.⁽¹⁾

وذكر الشيخ باي بلعالم في كتاب (الرحلة العلية) أنه انتقل إلى مدرسة الشيخ أحمد بن عبد المعطي السباعي الادريسي، ومكث فيها سنوات قرأ فيها الفقه والنحو والفرائض والحديث والتفسير، وفي برنامج تدريسه بمدرسة مصعب بن عمير التي أسسها وأشرف على التأطير بها؛ حلقة تدريسية في التفسير من مؤلف محمد حسن خان " فتح البيان" أيام الأسبوع عدا الخميس والجمعة، ضمن مجموع دروس في الفقه والحديث والتفسير⁽²⁾، وقد بين أيضاً الشيخ اعتماده على تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن.

وكان للشيخ محمد بن أحمد المطارفي(ت.1215هـ) الفقيه المفسر حلقات في التفسير، أخذ عنه ابن أخيه أحمد أبو العباس بن عبد القادر بن أحمد بن أحمد الراشدي؛ إمام وفقه ومفسر⁽³⁾، ويقول عنه صاحب الدرة الفاخرة: " إن العلامة سيدي محمد بن عبد الله بن العلامة الشيخ سيدي عمار بن عبد الرحمن التلاني كان إماماً عالماً في الفقه والتفسير، وأخذ عن شيخه سيدي محمد بن أحمد المطارفي، وأذن له في الإجازة، كان مجتهداً في البحث والنظر والتدريس."⁽⁴⁾

ويمكن القول بأن العناية السابقة بالتفسير قبل القرن الثاني عشر مهدت للتفسير أثناء الحركة العلمية بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للهجرة، فجهود الشيخ المغيلي في التفسير، وجهود الشيخ سليمان بن علي وغيرها مما لم يصلنا، كانت بحق لبنات قام عليها الدرس التفسيري عند علماء توات اللاحقين.

6. الخاتمة:

إن مما يوقع الأسف والحسرة في النفس أن ما أوردناه من مجالس للتفسير الشفوي عند علماء توات لم تجد تلامذة حراساً على تلقف تلك المعاني وتدوينها، وإلا لكانت لدينا ثروة من المخطوطات تجمع على الأقل جزءاً من ذلك الإنتاج التفسيري، ومن الأسف أيضاً أن أولئك العلماء على جلاله قدرهم وطول

(1) ينظر: محفوظ بن ساعد بوكراع: الفرقد النائر، ص 473.

(2) ينظر: محمد باي بلعالم، المرجع نفسه، ج 2، ص 378-384. محمد باي بلعالم: إرشاد الحائر، ص 74.

(3) راجع خدوسي وآخرون: موسوعة العلماء والادباء الجزائريين، ص 43، محفوظ بن ساعد بوكراع، الفرقد النائر في تراجم علماء أدرار المالكية الأكابر، دار الكتب العلمية، ص 168.

(4) محمد باي بلعالم: الرحلة العلية، ج 2، ص 185.

باعهم في العلم غفلوا عن تدوين علومهم ولا يلامون في ذلك لانشغالهم بالتدريس أو لقلة أدوات الكتابة أيضا، غير أن الواجب علينا محاولة استقراء واستنطاق ما هو لدينا من مؤلفات ومخطوطات وجمع ما أمكن مما وقفوا على تفسيره من آيات سواء في كتب الحديث أو الفقه أو العقيدة أو علوم اللغة وغيرها إظهارا لاهتمامهم بعلم التفسير.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب، ط1، 1998.
2. أحمد بابا التنبكي: نيل الابهاج بتطريز الديباج، اشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989.
3. بابا عبي موسى وآخرون: معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)، منشورات جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية/الجزائر، ط1، 1420هـ/1999م.
4. بكري عبد الحميد: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر، دار الغرب، الجزائر، ط2، 2007.
5. بلعالم محمد باي: إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر، ط1، 1433هـ.
6. بلعالم محمد باي: الرحلة العلية الى منطقة توات لذكر بعض الاعلام والآثار والمخطوطات والعيادات وما يربط توات من الجهات، دار هومة، الجزائر، 2005م.
7. تقي الدين أحمد بن علي المقرئ: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2000.
8. حسان حاج أحمد: غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل "المقدمة وباب الجامع" للشيخ محمد عبد العزيز البلبالي (ت1621هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أدرار، 2014/2015.
9. الحكيم الترمذي: الأمثال من الكتاب والسنة: تح: سيد الجميلي، دار ابن زيدون، لبنان، ط2، 1987.
10. خدوسي راج وآخرون: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات الحضارة، 2014.
11. الرصاع محمد بن قاسم: فهرست الرصاع، المكتبة العتيقة، تح: محمد العنابي، دت، د.ط.
12. السعدي عبد الرحمن: تاريخ السودان، تح: هوداس، مكتبة امريكا والشرق، باريس، 1981.

13. عبد الخالق قصبواي: تفسير القرآن في المخطوطات الجزائرية من ق10 إلى 12هـ إقليم توات نموذجاً ، مجلة مجلة الحضارة الإسلامية، مج 16، ع27.
14. عبد الرحمان وعبد العزيز البلبالي: مقدمة غنية المقتصد السائل فيما حل بتوات من القضايا والمسائل، مخطوط بخزانة الحاج أحمد بأنزجمير، أدرار.
15. محفوظ بن ساعد بوكراع، الفرقد النائر في تراجم علماء أدرار المالكية الأكابر، دار الكتب العلمية.
16. محمد باي بلعالم: الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن التتلاي، دار هومة، الجزائر، 2004.
17. محمد بن عبد الكريم البكري: دُرّة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة المطارفة، أدرار.
18. محمد بن عمر بن محمد بن المبروك البداوي الجعفري: نقل الرواة عن من أبدع قصور توات، مخطوط موجود بخزانة باعبد الله، وخزانة بودة بأدرار.
19. محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العلمية، لبنان ط1، 2002.
20. محمد مرتضى الزبيدي: المعجم المختص، تح: نظام محمد صالح يعقوبي و محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 2006.